المحاضرة الثالثة

أيها السادة

إن الشعر أثرٌ من آثار النفس ، ولونٌ من ألوان الفؤاد . وكما تختلف النفوس فى نزعاتها ، والقلوب فى خطراتها ، يختلف الشعر فى أغراضه ، ويتنوع فى مناحيه

نعم تتنوع مناحى الشعر ، وتتعدد مذاهبه ، بيد أنه لايكفى أن يقال : إن شعر اليأس غير شعر الرجاء ، وشعر الحزن غير شعر الفرح ، فان ذلك وان فرق بين عاطفة وعاطفة ، وحالة وأخرى ، فانه لايرضى الأديب الفيلسوف ، الذى يعرف لعاطفة الحب ألواناً مختلفة ، ولثائرة الحزن أشكالا متباينة ، فيرى الحزن على الحبيب الراحل ، غير الحزن على الحبيب المفقود ، ويرى الشعر فى بكاء الأبناء ، غير الشعر فى رثاء الآباء . حتى ليؤمن بالفرق بين الشاعرين : يدعُوَان إلى نحلة واحدة ، بلهجة واحدة ، إذ كانت خطوات السائرين فى سبيل واحد إلى غرض واحد تختلف قوةً وضعفاً ،

ونشاطاً وفتوراً ، باختلاف فهمهم للغاية التى يقصدونها ، والغرض الذى يرمون اليه

وكذلك يختلف الشعراء والكتاب : فان يكون ابن الرومى فى بؤسه وذله ، بالشاعر الذى ينحو منحى ابن المعتز فى عزه وغناه ، ولن تكون افكار جان جاك روسو الذى كان يفترش الأرض ويلتحف السماء ، بسالكة سبيل أفكار ميشيل مونتين الذى كان يعبده أبوه : فلا يوقظه من نومه إلا بأنغام الموسيقى ، وألحان الغناء [1]

* * *

إذاً فمن ابن أبى ربيعة من بين المحبين ؟ وما شعره من بين أنواع النسيب ؟

ابن أبى ربيعة ! أليس هو ذلك الرجل الذى ألحظه فى أعطاف الماضى ، وأنظره فى ثنايا الزمن ، فأرى فيه التيه والدلّ ، والفخر والأبّهة ؟ أليس هو هذا الذى يبدو على قدم العهد : وكأنه الزهرة الناضرة ، أو الابتسامة الحائرة ؟ مالى أراه هكذا مفتوناً بشبابه ، مغروراً بجماله ؟ وما بال النساء يُشرقن من حوله ، ويطامعن عليه ، فما يملكن قلبه ، ولا يأسرن فؤاده ؟

(١) يجد القارىء تفصيل هذه النظرية في البحث الثالث من كتاب « الموازنة بين الشعراء »

بلى انه رجل خليع ، وفاتن المنظر أخّاذ : فلا بد أن يكون شعره كذلك فاتناً أخاذاً ، وضاحك الثغر بسّام فيجب أن يكون شعره كذلك ضاحكا بساماً . فإنما الشعر صورة النفس ، وتمثال الفؤاد

ألا فليخل شعره من التوجّع ، وليسلم نسيبه من الجزع ، وليترك الهم لقوم سواه ، فما كان بالمحزون ولا المهموم !

علام يصف الليل : فيشكو كواكبه البطيئة ، ونجومه المشكولة ، وفجره المفقود ، وما كان الرجل فى التفاف النساء حوله ، واقبالهنّ عليه ، بالذى يضجّ منه السرير لبعد الأنيس ، أو تسأم منه الحجرات لفقد السمير : فلقد كانت تعده المرأة بالزيارة فى جنح الليل ، فلا تكاد تصل إلى منزله ، حتى تجد غيرها قد سبقتها اليه ، فتعود آسفةً حزينة

علام يشكو البين ، وما روّعه نذيرٌ بالفراق إلاّ بشّره بشير بالتلاق ؟ أم كيف يبكيه الوداع ، وهو الذى ما شيّع حبيباً ، إلا استقبل حبيبا ، ولا غابت عنه شمس ، إلا أشرقت عليه شمس

ألا فليذكر الليل الطويل تجميل ، وليحزن من البين المشتّ كثيرٌ ، ثم ليتركوا ابن أبى ربيعة بين الشموس السواطع ، والبدور الطوالع ، وإنه من بينهم لسعيد .

لم يكن ابن أبي ربيعة ممن إذا غاب عنه حبيب ، اخذ فى الحنين إليه ، والبكاء عليه . تلك سبيل الشعراء المتيّمين : الذين كانت قلوبهم أعوانا للدهر عليهم ، وكانت نفوسهم أخصاماً لهم . أولئك هم المعوزون فى عالم المحبة ، والمحرومون فى دولة الصبابة ، أولئك الذين يرون الجمال ظلا ظليلا ، ثم لا يستطيعون أن يتفيّئوا ماله من وارف الظِّلال ، أولئك الذين يحسدون الغلائل على الأعطاف ، والعقود فى النحور . وكيف يكون ابن أبي ربيعة مثلهم مسكيناً فى شعره ، وما كان مسكيناً فى حبه ؟ أم كيف يصف البكاء والمدامع ، وما ألِمَتْ نفسه ، ولا دمعت عينه ؟

بعداً للذلة حتى فى الحب ! وتباً للمسكنة حتى فى الغرام !

ولكن عذرناكم جماعة المؤلفين الذين يوجبون الذل فى النسيب : عذرناكم لأن المحبين جميعاً أذلاء ، ولأن أمثال ابن أبي ربيعة فى الحب قليل . عذرناكم لانا لانجد مفراً من هذه الذلة ، ولا محيصاً عن هذه المسكنة ، ولأن الله فى رحمته لم يشأ أن يجعلها ذلة خالصة ، بل شابها بنوع من الحرية ، وقسط من الاختيار ، يتمثل فى إقبالنا على الحسن ، إقبال السارى على القمر ، والصادى على النهر

نعم عذرنا المؤلفين فى تلك القيود التى وضعوها فى النسيب :

لأنهم ظنوا أن الناس جميعاً يعرفون منه ما يعرفون ، ويفهمونه كما يفهمون . ولكن فلنرحم أنفسنا من اتباعهم والسير فى آثارهم . ولنجر على سنن الكون وطبائع الحياة ، فيما نصدر من الاحكام ، وما نبدى من الآراء

ألسنا نخطِّىء من يزعم أن الورد فى عام من الأعوام ، ضعفت شجَراته ، وقلت زهَراته ، لأن آفة ألمت بحديقة من حدائقه ، وطافت بجنة من جناته ؟ بلى إنا نخطئه فى زعمه . لأن ذلك قد يلم بالشجرتين ، فى مغرس واحد ، فتنجو إحداهما وتعطب الأخرى . فكيف نقبل إذاً أن نحكم على الشعر قبل أن يوجد الشعراء ، وعلى التشبيب قبل أن يخلق المشبِّبون ؟ ألا إن الحكم الأدبى لا يغنى فيه غير الاستقراء ، وهيهات أن ينفع الاستقراء حيث يكثر الشذوذ . وما دام الأدب من آثار النفوس ، وما دامت النفوس قلما تتشاكل ، فلن يصح إلحاق الأواخر بالأوائل ، ولا الحكم على الاحفاد باتباع الاجداد

ولقد كان يصعب التمييز بين شعراء العرب لو اتبعوا نقادهم فيما يأمرون به من توحيد المعانى ، وتحدِّى القدماء . ولكن يظهر أن النفوس العربية الوثّابة ، التى ألِفت الحرية ، واعتادت الخروج ، حتى على الملوك والأمراء ، لم تشأ أن تخضع فى جوانح الشعراء لتلك النظم

المشوشة التى وضعها العلماء . وكذلك نهض الأدب مع ارتباك النقد : فكان الشعراء فى واد ، والنقاد فى واد .

إذاً فلنترك تلك السبل ، ولنحكم على الشاعر بما يصح أن يكون من ناحية ما اختص به ، من لون نفسه ، ووجهة خاطره ، غير ناظرين إلى تلك الأنواع العامة ، التى اتبعها صاحب الأغانى وغيره . تلك التى لاتميز شاعراً عن شاعر ، ولا كاتباً عن كاتب ، ولنجرب ذلك فى الحكم على ابن أبى ربيعة المخزومى . ثم لننزل عند حكم الطبع ، ولنتبع رائد التفكير .

* * *

علمتم أيها السادة أن ابن أبى ربيعة كان شاباً محسود الشباب ، وأنه كان الأمل الحلو ، الذى تتغنى به كل حسناء أوت إلى فراشها ، أو هبت من منامها ، والأمنية العذبة ، التى تترقرق فى قلوب العذارى صاعدةً هابطة : بين اليأس والأمل ، والرجاء والقنوط ، والحديث المعسول ، تفضى به البنت إلى أمها ، والأخت الى اختها ، بل كان زهرة النرجس ، تلك الزهرة المقدسة ، التى كان يرى العرب أن لابد لمن يرغب فى الحياة أن يشمها مرة كل شهر ، أو مرة كل سنة ، فان لم يستطع ففى العمر مرة . وكان ابن أبى ربيعة يعلم ذلك ، ويعلم أنه حديث الفتيان

فى الأندية السامرة ، والفتيات فى المغانى الزاهرة . نعم كان يعلم من ذلك ما أورثه العزة فى نفسه ، والتيه فى حبه ، فرغب عن قرب الملوك ، وترك زيارة الأمراء ، عالماً منه بأن له ملكا أعظم من ملكهم ، وعزاً أروع من عزهم ، إذ كان أمير الحُسن فى عصره ، ومليك الحُب فى دهره ، فطالما قدمت إليه الحلل الفاخرة ، والطيب النادر العَرف ، حباً فى شعره الذى تنبُه به الغوانى ، وتتفق به الأوانس . إذ كان من دلائل الحسن الذى يعتز به النساء ، ويتيه به الكواعب : أن يسير بيت لابن أبى ربيعة فى وصف امرأة والتشبيب بفتاة .

علم ذلك ابن أبى ربيعة ، وعلم أنه البدر الطالع فى سماء الحسن ، والزهرة الشائقة فى جنة المحبة ، فرأى من الحكمة أن يعمل على ما يزيد حبه رسوخاً ، وشعره نباهة ، فاحتال لذلك بحيل ثلاث

* * *

الحيلة الأولى — إبداعه فى وصف النساء : ذلك الوصف الذى ما سمعته امرأة إلا ودّت أن تكون الغرض منه ، والسبب فيه ، والذى ما ذكر فيه اسم امرأة إلا كانت أمل الآمل وأُمنية المتمنّى ، والذى طالما تسابق النساء إليه ، وتباغضن من جرائه . فكم كان يحسد

المرأة جاراتها ، ويغبطها أترابها ، إذا نوّه بها ابن أبي ربيعة في شعره أو خصها بالنسيب

ويرى الدكتور ضيف أن ابن أبي ربيعة لم يُعرف إلا بالقصص : فلم يكن من الوصّافين للنساء ، والناعتين المحاسن ، أما أنا فقد رأيت من حوادث النساء ما يدل على أنه كان لوصفه منزلة عندهن ، وحديث بينهن ، فقد ذكروا أن عائشة بنت طلحة سهرت ليلة لهم ألمّ بها ، فقالت: إن ابن أبي ربيعة لجاهل بليلتي هذه حيث يقول :

وأعجبها من عيشها ظل غُرفةٍ ... وريّان ملتف الحدائق أخضرُ
ووالٍ كفاها كل شيء يهمُّها ... فليست لشيء آخرَ الليل تسهرُ

ولقد أشار إلى ذلك بقوله :

ولقد قالت لجاراتٍ لها ... ذات يوم وتعرّت تبتردْ
أكما ينعتُني تبصرنني ... عَمْرَ كن الله أم لا يقتصد ؟
فتضاحكْنَ وقد قلن لها ... حَسَنٌ في كل عين من تَوَدّ
حَسَدًا خُمِّلنهُ من أجلها ... وقديمًا كان في الناس الحسد

ورأيت من نظرائه من نوّه بذلك : فقد قال نصيب : ابن أبي ربيعة أوصفنا لربات الحجال ؛ إلا أنه ينبغي أن نلاحظ أنه لم يكن يصف النساء إلا بما يزيدهنّ غروراً بشبابهن ، وفتوناً بجمالهن . وبما يشتهين

أن يُعرفن به : من ثِقَل الأَرداف ، ورقة الاطراف ، وبياض الترائب وسواد الذوائب ، إلى غير ذلك مما لو خلا النساء إلى شياطينهنَّ ، وسكنَّ إلى أمثالهنَّ ، ما خضن فى غيره ، ولا تحدثن فى سواه

إن المرأة تود كثيراً أن تكون كما قال :

نعم شعارُ الفتى إذا برد الليـ ـلُ سُحيراً وقَفْقف الصَّرِدُ (١)

كما يود الرجل — لو تغنى الودادة — أن يتناوم فى أحضان امرأة فضفاضة الصدر ، رجراجة الردف

تشفى الضجيع ببارد ذى رونقٍ لو كان فى غَلَس الظلام أنارا
ويفوز من هوىَ فى الشتاء شعارهُ أكرم بها دون اللحاف شِعارا

نعم وتود المرأة أن توصف بأنها ضعيفة المشى ، قصيرة الخطو ، لا لضعف فى جسمها ، بل لثقل فى ردفها ، يحول بينها وبين زيارة جاراتها . كما قال ابن أبى ربيعة

وتنوء تصرعها عجيزتهـا مشى الضعيف يؤُودهُ البُهرُ

حتى لتمنعها أردافها عن أداء الفريضة ، كما قال

تكاد من ثِقل الأرادف ان نهضت
إلى الصـلاة على الأنماط تنبتر

(١) قفقف : ارتعد من البرد ــ والصرد :من لا يحتمل البرد (٢) البهر : انقطاع النفس من الاعياء

وليت شعرى ماهى صلاة تلك الفينانة الكسلان !

وانى لأرحم التى يقول فيها

وظلتْ تَهَادى ثم تمشى تأوُّدًا وتشكو مِراراً من قوائمها فَتْرَا

ثم أكاد... إذا قرأت قوله

إذا ما دعت بالمِرط كيما تلفّهُ على الخصر أبدت من رِوادفها خفرا

عفا الله عنك يا ابن أبى ربيعة ، فقد جعلتنا نفرط فى القول ، ونسرف فى الحديث ، حتى لنخشى على أنفسنا أن نتمثّل بقولك

ولولا أن تعنّفنى قريشٌ وقول الناصح الأدنى الشفيقِ

لقلت إذا التقينا قبلينى ولو كنا على ظهر الطريقِ

وانك لكما قال عبد الملك : أطول قريش صبوة ، وأبطؤها توبة !

وأقول بعد ذلك أيها السادة : إن الرجل كان يختصر أحياناً فى الوصف ، إلا انه كان مع ذلك يصيب الصميم من المعنى المراد . فأى حسن فاته فى قوله

أبت الروادف والثُّدِىُّ لقُمصها مسَّ البطون وأن تمسَّ ظهورا

وإذا الرياح مع العشىِّ تناوحتْ نبَّهن حاسدةً وهجْن غيورا

وأى غرض لم يصبه بقوله

ذات حُسنٍ إن تغب شمس الضحى فلنا من وجهها عنها خَلَفْ

أجمع الناس على تفضيلها وهواهم فى سوى هذا اختلف

أما تلمحون جماعة المسلمين إذ ذاك ، وهم أحزاب وشِيَع ، يفضل بعضهم علياً ، ويرفع آخرون عمر ، حتى إذا ذكرت هذه الغانية ، اتفقوا على حسنها ، وأجمعوا على تفضيلها ؟

فأما إذا عمد إلى الإطناب : فانه الواصف القدير ، الذى يضع الكلام في مواضعه ، ويقر المعنى فى نصابه ، فيصف المرأة بما تود أن توصف به ، وبما يعلم أنه الشَّرَك ينصبه النساء ليصدن به الرجال . فيقول مثلا

خَوْدٌ تضيء ظلامَ البيت صورتها
كما يضيء ظلامَ الحِنْدِس القمرُ (١)

مجْدُولة الخَلْق لم توضع مناكبها مِلء العناق ألوفٌ جيبها عَطِرُ (٢)

ممكورة الساق مقصومٌ خلاخلُها فشبعٌ نَشِبٌ منها ومُنْكسِرُ (٣)

هَيفاء لفّاء مصقولٌ عوارضُها تكاد من ثقل الأرادف تنبتر (٤)

---

(١) الخود : الشابة أو الناعمة ــ والحندس بالكسر الليل المظلم

(٢) مجدولة الخلق : محكمة التكوين ــ والمناكب جمع منكب وهو مجتمع رأس الكتف والعضد (٣) الممكورة هي المدمجة الخلق والمستديرة الساقين

(٤) هيفاء : ضامرة البطن رقيقة الخصر ــ واللفاء هي الضخمة الفخذين

تفترُّ عن واضح الأنياب متسق ... عذب المقبل معسول له أشر (١)
كالمسك شيب بذوب النحل خاطله ... تأبى لبسهاء ما عفّت جدر (٢)
تلك التي سلبتني العقل وامتنعت ... الثانيات وإن واصلتنا غُدُر
قد كنت في معزل عما تقيضني ... العين حين دعاني للشقا النظر (٣)

وله في الأوصاف الظاهرة شعر كثير، يمتاز عن شعر أسلافه برقة الحاشية، وقرب المأخذ، وأنه يأتي إلى النساء من الناحية التي يرضينها، ويدخل اليهن من الباب الذي يهوينه. وأتى امرأة لا يطربها قوله

يا طيبَ طعم ثنايا ورية فيها ... إذا استقلّ عمود الصبح فاعتدلا
بحاجة المسك لا تُفلى شمائلها ... تزداد عندي إذا ما ماحل حولا (٤)
لو كان يحبل طيب النشر ذا كَفَلٍ ... لكنت من طيب رياها الذي خُيلا (٥)

* * *

فلكم هي الحيلة الأولى: حيلة الموصف السابل، والنعت الشامل. فأما الحيلة الثانية: فهي تلطّفه في مخاطبة النوائي، وتودّده اليهن بحسن

(١) الأشر: التحزيز الذي يكون في الأسنان (٢) شيب: مزج. وجدر: اسم بلدة بين حمص وسلمية (٣) الحين بالفتح هو الهلاك (٤) الماحل: من المحق وهو المكر والكيد (٥) النشر: ريح المطية أو ريح فم المرأة واعتلافها بعد النوم — والريا: الرائحة

الحديث . والنساء ضعيفات القلوب ، رقيقات الاكباد ، يسكنّ الى الحديث الممتع ، ويصغين الى الحوار اللطيف . وآكد ما يكون ذلك اذا شُعشِع الحديث بشيء من الصبابة ، أومزج بقسط من الاستعطاف. وكذلك كانت طريقته فى مخاطبة الحسان ،ومحاورة الغوانى. من ذلك قوله

يفرح القلب إن رآك وتستعْ ... برُ عينى اذا أردتِ ارتحالا
ولئن كان ينفع القرب ما أز ... دادُ فيما أراك إلاّ خَبالا
غير أنى مادمتِ جالسةً عن ... دى سأَلْهو مالم تريدى زِيالا
فاذا ما انصرفتِ لم أر للعيـ ... ـش التذاذا ولا لشيءٍ جمالا
أنت عيشى نعم ورؤيتك الخُلْـ ... ـدُ وكنتِ الحديث والأشغالا
حُلْتِ دون الفؤاد واختارك القلْـ ... ـبُ وخلّى لكِ النساء الوصالا
وتخلّقتِ لى خلائق أعطتـ ... ـكِ قيادى فما ملكتُ احتمالا
أيها العاذلى أَقِلَّ عتابى ... لم أطع فى وصالها العُذّالا
ان ماقلت والذى عِبتَ منها ... لم يزدها فى العين إلا جلالا
لاتَعِبْها فلن أطيعك فيها ... لم أجد للوشاة فيها مقالا
فيمَ بالله تقتلين محبًّا ... لك بالوصل مُخلِصاً بذّالا
ولعمرى لئن هممتِ بقتلى ... لبما قد قتلت قبلى الرجالا
حدثينى عن هجركم ووصالى ... أحراماً ترينهُ أم حلالا
كم تمنيت اننى لك بعلٌ ... آه بل ليتنى بخدك خالا

ومثل هذا الشعر جدير بأن يفتن النساء ، ويخلب الحسان ، وابن أبي ربيعة يجيد هذا النوع من السحر ، ويحسن هذا الضرب من الحوار. وأى استدراك أبدع من قوله

سُقِيتِ بوجهك كل أرض جئتها ... وبمثل وجهك نَسْتَقِى الأمطارا

وأرى جمالك فوق كل جميلةٍ ... وجمالُ وجهك يخطف الابصارا

انى رأيتك غادة مُخمصانةً ... ريّا الروادف عذبةً مِبشارا (١)

محطوطة المتنين أُكمل خَلْقها ... مثل السبيكة بضّةٌ مِعطارا (٢)

كالشمس تُعجب من رأى ويزينها ... حَسَبٌ أغر إذا تريد فخارا

ويفوز من هى فى الشتاء شِعارهُ ... اكرم بها دون اللّحاف شعارا

ويدخل فى هذا الباب ما كان يرسله أحيانا الى الثريا من مثل قوله :

كتبت اليكِ من بلدى ... كتاب مولّهٍ كمِدِ

كئيب واكف العينيـ ... ـن بالحسرات مُنفردِ

يؤرّقه لهيب الشو ... ق بين السّحر والكبد

(١) الغادة : المرأة الناعمة اللينة ــ والمخمصانة : الضامرة البطن ــ والمبشار : الحسنة الخلق واللون (٢) محطوطة المتنين : ملساء . وفي الاساس : جارية محطوطة المتنين كأنما حطا بالمحط وهو ما يحط به الاديم أى يدلك ويصقل . قال النابغة

محطوطة المتنين غير مفاضة ... ريا الروادف بضة المتجرد

فيمسك قلبهُ بيدٍ ويمسح عينهُ بيد

وقد خُدعت الثريا بهذه الأبيات فبكت عند قراءتها وأنشدت

بنفسيَ من لايستقلُّ بنفسهِ ومن هُوَ إن لم يحفظ الله ضائعُ

وانه لعجيب أن يملا الدنيا فخراً باقبال النساء عليه ، وتوددهن اليه ، ثم يقول بعد ذلك :

ألستُ أرى ذَا ودكم فأودُّهُ وأكرم إن لاقيت يوماً لكم كلبا

أرى أم عبد الله صدّت كأنني بما فعل الواشي جنيتُ لها ذنبا

فلا تسمعي من قول من ودَّ أنني وإياكِ يُمسي ما نحلُّ به جَدْبا

نعم وعجيب أن تقرأ له

سَلامٌ عليها ما أحبت سلامنا فان كرهته فالسلام على الاخرى

ثم تراه يتشبه بالعشاق المُبعَدين فى قوله

فانْ تغيَّر ما عهدت وأصبحت صدفت فلا بذلٌ ولا ميسورُ

لَبما تساعف باللقاء ولبُّها فرحٌ بقرب مزارنا مسرور

إذ لايغيرها الوشاة فودنا صافٍ نراسل مرةً ونزور

لا تأمنّ الدهرَ أنني بعدها إني لِآمن غدرهنَّ نذير

بعد التي أعطتك من أيمانها ما لا يطيق من العهود ثبير

فاذا وذلك كان ظلّ سحابةٍ نفحت به فى المعصرات دَبُور[1]

ولكن لا عجب ، فانما يلعب بقلوب النساء . فان أجدى اليه والصلف ، وإلا فهو جدير بأن يتكلّف الحزن ، ويتصنع الخشوع

* * *

أما الحيلة الثالثة — وهى أدهى الحيل ، وأشدهن خطراً على عفة النساء — فهى وصفه لأوقات التلاقى ، وساعات التدانى . فقد كان يُغرِبُ فى ذلك إغراباً لم يُسبق به ، ويتهتك تهتكاً لم يعرفه الناس من قبل ، اللهم إلا شذرات قلائل فى شعر امرىء القيس وأمثاله من الخلعاء

ولولا بعض الرأى فيما ذكرت من الحيلتين السالفتين ، لقلت إن هذه الحيلة هى كل ما لابن أبى ربيعة من إبداع ، ولشعره من ميزة . فقد بلغ من ذلك مبلغاً عظيما ، وأثر أثراً غير قليل ، ورآه الناس ضاراً بالأخلاق والآداب ، ومحرضاً على الفسق والفجور ، فحرّم أهل الورع منهم روايته على فتيانهم وفتياتهم لئلا ينكبوا على الفسق انكباباً ، ولقد مرت ظبية مولاة فاطمة بنت عمر بن مصعب على عبد الله بن مصعب ومعها دفتر ، فناداها ما هذا معك يا ظبية ؟ فقالت شعر ابن أبى ربيعة

(١) الدبور : ريح تقابل الصبا والمعصرات : السحاب

يا سيدى . فقال : ويحك تدخلين على النساء بشعر ابن أبى ربيعة ! إن لشعره لموقعاً من القلوب ، ومَدْخلا لطيفاً إلى النفوس ، ولو كان شعر يسحر لكان هو . فارجعى به ! وكان ابن جريج يقول : ما دخل على العواتق فى حجالهن [1] شىء أضر عليهن من شعر ابن أبى ربيعة . وقال هشام بن عروة : لاتروّوا فتياتكم شعر عمر ، لايتورطن فى الزنا تورطاً

* * *

أقول ذلك أيها السادة ، لأنى أرى الصفة الغالبة فى شعره إنما هى ذلك القصص الجميل ، والحديث العذب المعسول ، الذى يصف به لياليه البيض الحسان ، مع أحبابه البيض الحسان ، ولأنى رأيت الناس فى عصره ، قد مُلئوا دهشة واستغراباً ، من تلك الأحاديث النادرة الطريفة ، وهاتيك القصص الممتعة الشائقة : فكان من ذلك أن لقيه رجل فى الطواف فقبض على يده وقال : أكل ما قلته فى شعرك فعلته ؟ فقال إليك عنى ! فقال أسألك بالله . فقال نعم وأستغفر الله ! بل وكان

(١) الحجال جمع حجلة بالتحريك وهى القبة وموضع يزين بالثياب والستور للعروس . والعواتق جمع عاتق وهي الفتاة التى لم تتزوج أو التى بين الادراك والتعنيس — والتعنيس أن يطول مكث الفتاة في اهلها بعد ادراكها حتى تخرج من عداد الابكار

من ذلك أن فُتن الناس بمذهبه فى القصص ، وأسلوبه فى الحديث ، فقال الزبير بن بكار : لقد أدركت مشيخة من قريش لا يزنون بعمر ابن أبى ربيعة شاعراً من أهل دهره فى النسيب ، ويستحسنون منه ما كانوا يستقبحونه من غيره ، من مدح نفسه ، والتحلى بمودته

نعم فتن الناس بمذهبه حتى الشعراء منهم ، فلقد حدثوا أن الفرزدق قدم المدينة وبها رجلان وُصفا له يقال لأحدهما صُرَيم وللآخر ابن أسماء ، فقصدهما وكان عندهما قيان ، ثم قال لهما بعد أن سلم عليهما : من أنتما ؟ فقال أحدهما : أنا فرعون ، وقال الآخر : أنا هامان ، فقال : فأين منزلكما فى النار حتى أقصدكما ؟ فقالا : نحن جيران الفرزدق الشاعر ! فضحك ونزل ، فسلم عليهما وسلما عليه وتعاشروا مدة ، ثم سألهما أن يجمعا بينه وبين عمر ابن ربيعة ففعلا ، فلما التقى الشاعران تحادثا وتناشدا إلى أن أنشد عمر قصيدته التى يقول فيها

فلما التقينا واطمأنّت بنا النّوى

وغُيّب عنا من نخاف ونُشفقُ

أخذت بكفّى كفّها فوضعتها على كبدٍ من خشية البين تخفقُ

فلما بلغ قوله

فقمن لكى يُخلينا فترقرقتْ مدامع عينها وظلت تدفّق[1]

وقالت أما ترحمنى ! لا تدعنى لَدَى غزلٍ جمّ الصبابة يخرق[2]

فقلن اسكتى عنا فغير مطاعةٍ فذلّك منا فاعلمى بك أرفق

فقالت فلا تبرحن ذا السترَ إننى

أخاف وربّ الناس منه وأفرَقُ

صاح الفرزدق قائلا : انت والله ياأبا الخطاب أغزل الناس ! لايحسن الشعراء والله أن يقولوا مثل هذا الشعر ولا أن يرقوا مثل هذه الرقية

وكذلك فتن جميل بشعر ابن أبى ربيعة فقد تناشدا الشعر ، فانشد جميل قصيدته التى يقول فيها

لقد فرح الواشون أن صَرَمت حبلى

بثينةُ أو أبدتْ انا جانب البخل

فلو تركت عقلى معى ما طلبتها ولكن طِلابيها لما فات من عقلى

يقولون مهلاً يا جميلُ وإننى لأُقسم مالى عن بثينة من مهل

أصبراً وقبل اليوم كان أوانهُ ؟

أم آخشى وقبل اليوم هددت بالقتل

(١) يخلينا : يجعلنا في خلوة (٢) يخرق من الخرق بالضم وهو الحمق

أبيتُ مع الهُلاّك ضيفاً لأهلها
وأهلي قريبٌ مُوسِعون ذوو فضل[1]

فياويح نفسي حَسبُ نفسي الذي بها
ويا ويح أهلي ما أصيب به أهلي :

خليليّ فيما عشتما هل رأيتما قتيلا بكى من حب قاتله قبلي

ثم أنشد ابن أبي ربيعة قوله من قصيدة

جرى ناصحٌ بالود بيني وبينها فقرّبني يوم الحصاب الى قتلي[2]
فطارت بحد من فؤادي وقارنت قرينتها حبل الصفاء الى حبلي
فما أنسَ لا أنسَ شياء لا أنس موقفي وموقفها يوماً بقارعة النخل
فلما تواقفنا عرفت الذي بها كمثل الذي بي حذوك النعل بالنعل

ويقتصر أكثر الرواة على البيت الاخير شاهداً على إعجاب جميل به حين قال : هيهات ياأبا الخطاب ! لا أقول مثل هذا سجيس الليالي ، والله ماخاطب النساء مخاطبتك أحد ! وأرى ان هذا ليس بيت القصيد، ولا هذا المعنى بالذي يستفز شاعراً كجميل . بل هو معنى عادي سبقه الشعراء به ، فقد قال بعض الجاهليين :

---

(١) الهلاك : الصعاليك الذين يعيشون من معروف الموسرين
(٢) الحصاب كالمحصب: موضع رمي الجمار

ولما أن رأيت بنى حُيىٍّ عرفت شَنَاءتى فيهم ووِترى

وأرى أن الذى لفت نظر جميل ، وجعله يحسد ابن أبى ربيعة على شعره ، انما هو قصصه الشائق ، وحديثه العذب . وذلك قوله :

فعاجت بأمثال الظباء نواعمٍ الى موقف بين الحجون الى النخل
فقالت لأتراب لها شَبَه الدُّمى أطلن التمنّى والوقوف على شغلى
وقالت لهن ارجعن شيئا لعلنا نعاتب هذا أو يراجع فى وصل
فقلن لها هذا عِشاءٌ واهلنا قريب ألمّا تسأمى مركب البغل ؟
فقالت فما شئتنّ قلن لها انزلى فلَلأرض خير من وقوف على رَحْل
نجومٌ درارىٌّ تكنَّفن صورة من البدر وافت غير هُوجٍ ولا عجْل
وقمن اليها كالدُّمَى فاكتنفنها وكلٌّ يفدّى بالمودة والأهل
فسلمت واستأنست خيفة أن يرى عدوٌّ مُقامى أو يرى كاشحٌ فعلى
فقالت وأَرْختْ جانب الستر إنما معى فتحدَّثْ غير ذى رِقْبةٍ أهلى
فقلت لها مابى لهم من ترقُّبٍ ولكنّ سرى ليس يحمله مثلى (١)

ثم يقول عن أترابها .

فاما اقتصرنا دونهن حديثنا وهن طبيباتٌ بحاجة ذى الشكل (٢)

(١) كان القدماء يرون هذا البيت أجمل ماقيل فى حفظ السر ونحسبه كذلك
(٢) الشكل بالكسر الغزل

عرفن الذى تهوى فقلن لها الذي ... نطفت ساعة فى بَرْد ليلٍ وفى سهل
فقالت فلا تلبثنَ فان تحدثى ... أتينا الى وانسبن انسياب بها الرَّمل
وقمن وقد أفهمن ذا اللب انما ... أتين الذى يأتين من ذاك من أجلى
وباتت تميجُ المسك فى فَّ غادةٍ ... بعيدة مهوى القُرط صامتة الحجْل (١)
تقلِّب عَيْنَىْ ظبيةٍ ترتعى الخلا
وتحنو على رَخص الشوى أغيدٍ طفل (٢)
وتفتر عن كالأُقحوان بروضةٍ ... جلته الصَّبا والمستهلُّ من الوَبْل (٣)
أهيم بها فى كل مُمسًى ومُصبَح ... وأُكثر دعواها اذا خدرت رجلى

وهنا قال جميل : هيهات ياأبا الخطاب : لا أقول والله مثل هذا سجيس الليالى . والله ماخاطب النساء مخاطبتك أحدٍ

*
* *

ذكرت ماتقدم أيها السادة : تمهيداً للحكم على شعر ابن أبى ربيعة ، وبياناً لإبداعه الذى عُرف به . فانى رأيت الادباء السالفين انما ينسبون اليه هذه البدعة ، ويسندون اليه هذا الجرم : وهو تزيين الفسق وتلطيفه ،

(١) بعد مهوى القرط كناية عن طول العنق ، والقرط بالضم حلية تعلق في الاذن وتسمى الشنف . وصموت الحجل كناية عن بضاضة الساق والحجل الخلخال
(٢) رخص الشوى : لين الاطراف (٣) الوبل : المطر

وتسهيله لدى النفوس الأبية ، وتقريبه الى القلوب العَصِيّة . ولقد ذُكر شعره مع شعر الحارث بن خالد فى مجلس ابن أبى عتيق ففضل بعض الحاضرين شعر الحارث فقال ابن أبي عتيق : بعضَ قولك يا أخى ! فانه ماعُصِى الله عز وجل بشعر أكثر مما عصى بشعر ابن أبى ربيعة . يريد انه أبصر بمواقع الاهواء، ومواطن التأثير

وإذ كان المؤلفون فى الأدب لم يشرحوا طريقة ابن أبي ربيعة فى القَصص ، وكان منهجه فيه جديراً بالبيان والإيضاح ؛ فقد أردت أن أبين وجه الفتنة فيه ، وموضع الحسن منه ، حتى يتبين لكم ماذهبت اليه : من أنه فى شعره محتال ، وأنه بالنسيب صائد . وحسبكم هذا المثال . قال :

راح صحبي ولم أُحيِّ النَّوارا وقليلٌ لو عرَّجوا أن تُزارا
ثم إمَّا يَسْرون من آخر الليـــل وإما يعجلون ابتكارا

هنا يتمثل لكم : وهو خافت الصوت ، خافق القلب ، لايدرى — وهو بين اليأس والأمل ، والرجاء والقنوط — أيلتمس الحيلة إلى لقائها ، ويبتغى الوسيلة إلى وصالها ، أم ينصرف وهو شجىّ ، ويرتحل وهو حَزين

ثم بيّن ما تمّ له بقوله :

ولقد قلت ليلة البين إذ جدّ ... رحيلٌ وخفت أن أستطارا

لخليل يهوى هوانا مُوَاتٍ ... كان لى عنده مثلها نظّارا

ياخليل اربعنْ علىّ وعينا ... ىَ من الحزن تهملان ابتدارا

ههنا فاحبس البعيرين واحذر ... رائدات العيون أن تستنارا

انني زائرٌ قُريبة قد يه ... لم ربي أن لا أطيقَ اصطبارا

فما كان جوابه ؟

قال فافعل لايمتعنّك مكانى ... من حديثٍ تقضى به الأوطارا

والتمس ناصحاً قريباً من الوِرْ ... دِ يحسُّ الحديث والأخبارا

فكان ماذا ؟

فبعثنا مجربا ساكن الري ... ح خفيفاً مُعاوداً بَيْطارا

فما الذى صنع ؟

فأتاها فقال ميعادك السِّرْ ... حُ إذا الليل سدّل الأستارا

وكيف وصلت ؟

فكمنّا حتى إذا فقد الصو ... ت دجى المظلم البهيم فخارا

قلت لما بدت لصحبيَ انى ... أرتجى عندها لدينى يسارا

ثم أقبلت رافع الذيل أخفى الـ ... وطء أخشى العيون والنُّظارا

فما الذى كان ؟

فالتقينا فرحّبت حين سلّـ ... ـت وكفّت دمعاً من العين مارا[1]

ثم قالت عنـد العتاب رأينا ... فيك عنا تجلداً وازْورارا[2]

قلت كلا لاهِ ابنُ عمك بل خِفْـ ... ـنا أموراً كنا بها أغمارا[3]

فجعلنا الصدود لما خشينا ... قالة الناس للهوى أستارا

وركبنا حالا لتكذب عنا ... قول من كان بالبتان أشارا

واقتصرت الحديث دون الذى قد ... كان من قبل يعلم الاسرارا

ليس كالعهد إذ عهدتِ ولكن ... أوقد الناس بالنميمة نارا[4]

فلذاك الإعراض عنك وما آ ... ثر قلبي عليك أخرى اختيارا

ما أبالى إذا النوى قربتكم ... فدنوتم من حلّ أو من سارا

والليالى إذا نأيت طِوالٌ ... وأراها إذا دنوت قِصارا

فعرفت القبول منها لعذرى ... إذ رأتنى منها أزيد اعتذارا

(١) مار الدمع : جرى وسال (٢) الازورار : الاعراض (٣) لاه ابن عمك : أى لله ابن عمك ، والاغمار جمع غمر بضم الغين وفتحها مع سكون الميم وهو الغر الجاهل الذى لم يجرب الامور (٤) ليس كالعهد إذ عهدتِ : يريد أن سلام الهوى تقضت أيامه فعصفت به الوشايات والنمائم

ثم ماذا ؟

ثم لانت وسامحت بعد منع ... وأرتنى كفا تزين السوارا
فتناولتها فمالت كغصن ... حركته ريح عليه غارا
وأذاقت بعد العلاج لذيذاً ... كجنى النحل شاب صرفا عقاراً[1]

ثم ماذا يا خبيث ؟

ثم كانت دون اللحاف لمشغو ... ف معى بها مشوق شعارا
واشتكت شدة الإزار من البهـ ... ـر وألقت عنها لدىّ الخمارا[2]
حبذا رجعها إليها يديها ... فى يدىْ درعها تحلّ الإزارا

قاتلك الله ! ثم ماذا ؟

ثم قالت وبان ضوء من الصبـ ... ـح منيرٌ للناظرين أنارا
يا ابن عمى فدتك نفسىَ إنى ... أتقى كاشحاً إذا قال جارا

فأى فتاة تسمع هذا القصص، ثم لا تبحث عن واضعه ، وهو كما ترون يردّ شرّة الشباب جذعة ؟

ومن عساها تسمع قوله :

واشتكت شدة الازار من البهـ ... ـر وألقت عنها لدىّ الخمارا

---

(١) المراد بالعلاج هنا ما كان من المحاولة في سبيل الايناس

(٢) البهر بضم الباء انقطاع النفس من الاعياء

حبّذا رَجْعُها اليها يديها في يدى درعها تحل الازارا

ثم لا تنبهر منها الأنفاس ، وتنفك منها الأزرار ؟ !

هذه إحدى قصائده القَصصية ، وعلى نمطها طبع أغلب شعره ، وهي كما ترون من موجبات الفتنة ، وموقظات الشهوات !

وكذلك كان الناس يفهمون فى شخص ابن أبى ربيعة محرضاً على الفسق مزيّناً للفجور ، عاقا للفضيلة ، باراً بالرذيلة ، وكذلك كان شعره عفا الله عنه . وأى امرأة لا تفتنها تلك الاحاديث الفاتنة ، وهاتيك القصص الخالبة ؟

أليس هو الذى يقول ؟

وناهدة الثديين قلت لها اتّكى على الرمل من جَبّانةٍ لم تَوَسّد[1]

فقالت على اسم الله أمرُك طاعة وإن كنت قد كلّفت ما لم أُعوَّدِ

فلما دنا الإصباح قالت فضحتنى

فقُم غيرَ مطرودٍ وإن شئت فازددِ

فما ازددت منها غير مصّ لثاتها وتقبيل فيها والحديث المردّد

تزودت منها واتّشحت بمرطها وقلت لعينيّ اسفَحا الدمع من غد

فقامتِ تُعفّى بالرداء مكانها وتطلب شَذْراً من جُمان

(١) الجبانة : الصحراء ، وتسمى المقابر جبانة لانها أكثر ما تكون في الفلاة

ومهما يكن من شيء فان الرجل لم يشأ أن تختم حياته بالجنون ، فما كاد يتجاوز الأربعين من عمره حتى أقبل على نفسه يحاسبها وعلى ربه يستغفره : فهجر الشعر على حبه ، وألف النُّسك على بغضه ، لولا تلك الذكرى الموجعة التى كانت تعاوده من حين إلى حين ، وذلك الشوق الدخيل الذى كان يهيجه فى الفَيْنة بعد الفَيْنة ، فقد كان يحنُّ إلى شبابه حنيناً موجعاً ، ويتطلّع إلى ماضيه تطلُّع اليائس المتلهف ، فيمدُّ يديه علّه يرجع الدهر ، ويافت الزمن ، ولكن هيهات هيهات ، فقد خانه الأمل ، وخلاّه الشباب ، وأخذ الشيب فى هدّ تلك القوى . وهدم ذلك الصرح ، وأخذ النساء يتراجعن ضاحكات منه ، ساخرات به ؛ وبدأ الدهر يبنى دولة جديدة للحب ، ويشيِّد حصناً ثانيا للغرام ، فأنشأ فتياناً غير الفتيان ، وعذارى غير العذارى ، وأصبح ابن أبى ربيعة غريباً والمشيب غُربة ، وقصيًّا والشيب شبه النوى ، وعاد الناس يقولون هذا هو ابن أبى ربيعة الذى كانت تمضُّه النساء وهو بالبيت يطوف ، وهذه هى الثريا التى كانت تحسدها الازهار فى الرياض والنجوم فى السماء ، وهذه معالم ابن أبى ربيعة ومعاهد شبابه ، قد عادت صُمًّا خوالد ما يبين كلامها

أقول أيها السادة ان ابن أبى ربيعة أخذ يحنّ إلى أيامه الخوالى ،

لياليه السوالف ، ويتشوّق إلى الشباب الراحل ، والنعيم الذاهب يزيدهُ كلفاً وأسفاً أن يرى الشباب فى صعود نحو المستقبل المشرق ، يرى نفسه فى هبوط إلى الماضى المظلم . فما لقى فتى جميلاً أو شاباً وسيما لا أرسل بصره إليه يتأمل شكله ، ويجتلى حسنه ، ثم يمد يده إلى سعره فيعبث به ، وإلى ذؤابته فيرسلها ، ثم ينتحب ويقول :

اشباباه ! واشباباه !

حتى لقد مرّ به فتيان وهو بالحِجْر يصلى فلم يكد يفرغ من صلاته حتى لحق بهما فعرفهما ثم قال : يا ابنى أخى ! لقد كنت موكلا بجمال أتبعه ، وإنى رأيتكما فراقنى حسنكما وجمالكما ، فاستمتعا شبابكما قبل أن تندما عليه ! !

نعم أقلع ابن أبى ربيعة عن غيّه وأصبح يستقبح من الفتيان هو شيخ ما لم يكن يستقبحه من نفسه وهو فتى . فما طاف بالبيت لا تأمل علّه يجد فتى يحدث فتاة فينهاه ، أو امرأة تتبع رجلا بردعها ! ولقد كان من أمره أن نظر إلى رجل يكلم امرأة في طواف فعاب ذلك عليه وأنكره فقال له : انها ابنة عمى ، فقال لك أشنع ! فقال إنى خطبتها إلى عمى فأبى علىّ إلا بصداق أطيقه ، ثم شكا إليه من حبه لها وكلفه بها ما جعله يسير معه إلى

عمه يسترضيه . فقال له إنه مُمْلِق وليس له ما يصلح به أمره

فقال له عمر : وكم الذى تريده منه ؟ فقال له أربعمائة دينار .

فقال له :هي عليّ فزوّجه . ففعل

قالوا وكان عمر حلف لايقول بيتاً من الشعر إلا أعتق رقبة فانصرف يومئذ وهو حزين ، فجعلت جارية له تكلمه فلا يرد عليها جواباً ، فقالت له : إن لك لأمرا ، وتريد أن تقول شعراً ، فقال

تقول وليدتى لما رأتنى
طربتُ وكنت قد أقصرت حينا
أراك اليومَ قد أحدثت شوقاً
وهاج لك الهوى داءً دفينا
وكنت زعمت أنك ذو عزاءٍ
إذا ما شئت فارقت القرينا
بربك هل أتاك لها رسولٌ
فشاقك أم لقيتَ لها خَدِينا

فقلت شكا إليّ أخٌ محبٌّ كبعض زماننا إذ تعلمينا

وقصّ عليّ ما يلقى بهندٍ فذكّر بعض ما كنا نسينا
و ذو الشوق القديم وإن تعزّى
مشوقٌ حين يلقى العاشقينا
وكم من خُلة أعرضت عنها لغير قِلًى وكنت بها ضنينا
أردت بعادها فصددت عنها وان جُن الفؤاد بها جنوناً
ثم دعا تسعة من رقيقه فاعتقهم ، لكل بيت واحد

* * *

فسلام عليه يوم قال الشعر ! وسلام عليه يوم ودّعه ! وعفا الله عمن فتن بشعره فأجاب داعي الشباب ! !